سحر العاهة لا غير... !
من عمى أبي العلاء إلى صمم ابن شهيد

أ. جلال عبد القادر
جامعة سيدي بلعباس

استطاع المستشرق الإسباني أ.ج.بلانثيا (angel.g.palancia)، حين عنون كتابه بـ"تاريخ الفكر الأندلسي"[1]، أن يرصد وهج العلامة الأبرز في الأدب الأندلسي ؛ "الفكر"، باعتبارها العامل الأكثر توصيفا لملامح التشكيلات التعبيرية المختلفة.خاصّة وأنّ الرّؤية التي اقتربت من ذاك الأدب ظلّت إلى وقت قريب تنضح من معين فكرة واحدة ، قد نسمّيها ؛"رجع الصّدى".ولعّل القارئ المهتم ـ ولو قليلا ـ بالأدب الأندلسي،يدرك للوهلة الأولى أنّ الفكرة تعني فيما تعنيه بأنّ الأدب في الأندلس لم يكن إلا تقليدا للأدب في المشرق .يؤكّد هذا ماقاله صاحب الذخيرة من أنّ« أهل هذا الأفق [الأندلس]، أبوا إلامتابعة أهل الشّرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة .حتّى لو نعق بتلك الآفاق غراب ،أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنما ،وتلوا على ذلك كتابا محكما[2] » .ثمّ أخذتْ الغيرة منه مأخذا جعلته يقول« فغاظني منهم ذلك، وأنفت ممّا هنالك ،وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري ، وتتبّع محاسن أهل بلدي وعصري ، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلّة وتصبح بحاره ثمادا مضمحلّة ،مع كثرة أدبائه ،ووفور علمائه ...**وليت شعري مَن قصر العلم على بعض الزّمان ،و خصّ أهل المشرق بالإحسان؟** »[3] ولا يختلف عن رؤية ابن بسّام تلك ، نقّاد ومؤرّخو الأدب المحدثون ، فشعراء الاندلس ـ مثلا ـ في نظرهم« لم يفلحوا كثيرا في استقلالهم عن الشرق ...كما

لم يفلح اللّغويون و النّحويون والصّرفيون[4]» ، إلى درجة يصعب مع جهل القائل نسبة العمل جغرافيا.

مدفوعا إذا بهذه الرؤية لم يستطع النّقد العربي القديم والحديث أن يميز الأدب الأندلسي من المشرقي، حتّى لو انماز وبدت قسماته.ولو دوّرت الزوايا قليلا ، لغدت المسألة أكبر من أن تحشر بين جدران التقليد . فقد يكون عامل المثاقفة الداخلية ، وهجرة النصوص والأفكار داخل الأدب الواحد مسلكا تعود إليه العلل.ومن أشكال تلك المثاقفة ماجرى الحديث عنه من تقليد "ابن شهيد "في "التوابع والزوابع"لأبي العلاء في "رسالة الغفران"، أو العكس.

وقبل الخوض في أسبقية أحدهما في هذا الباب، لفت انتباهنا اجتماع الرجلين في رسالتيهما على موضوع خيالي ، تؤطّره رؤاهما عن الكتّاب والأدباء والشّعراء ، ثم ابتلاؤهما وهذا من غريب الصدف - بعاهتي العمى والصّمم.وقد كتب عمرو بن بحريوما كتابا عن المتميزين من ذوي العاهات، «ولم يرد بكتابه هذا أن يذكر العيوب والعاهات نعيا على أربابها بل قصد أن يجلو صورة ناصعة مشرقة لذوي العاهات الذين لم تكن عاهاتهم لتحول بينهم وبين تسنّم الذرى ، وقد مهّد لذلك بسرد شواهد وآثارمن أدب العرب القدامى والمعاصرين له، في الاعتزاز ببعض العاهات والدّفاع عنها والصّعود أحيانا إلى الفخر بها والتّمدّح ، وصدق الانتماء[5]» ، ومن تلك العاهات ماذكره في فضل العميان مثلا[6].فإذا كانت شهرة أبي العلاء قد طارت في الآفاق باللّزوميات ، وسقط الزّند ، ورسالة الغفران.فإنّ شهرة ابن شهيد قد ذاعت بالنثر أكثر من الشّعر ، إذ لم يكن له من هذا الأخير حظ وافر .ولهذا عندما اقتربت منه الدراسات النقدية الحديثة

، لم تذكره إلا ذكرت كلفه برسالة الغفران الّتي نسج على منوالها رسالته "التوابع والزوابع". والغالب أنّ الانسياق وراء هذا الحكم، إنّما يقع تحت قاعدة ولع الطّالب بأستاذه، فالأدب الأندلسي ليس من منظور هذا الحكم إلاّ صدى للأدب في المشرق.

ونحن نأخذ من ابن شهيد و أبي العلاء نموذجا للأدب المقارن في وجهه المحلّي ! وقفنا على محاكمة النّقاد العرب المحدثين ونظرائهم من المستشرقين حول المسألة.فعندما يعطي "زكي مبارك"لحديثه عن التوابع والزوابع هذا العنوان ؛« سياحة شاعر في وادي الشّياطين[7] »، يمضي في شرح التّسمية ،ليلتفت إلى ما نحن بصدده ؛فيشير إلى رأي أستاذه أحمدضيف من أنّ التوابع والزوابع محاكاة لرسالة الغفران ، ومن أنّ ابن شهيد كان يقلّد أبا العلاء لأنّه أدرك عصره ولأنّ شهرة أبي العلاء كانت ذائعة في المشرق والمغرب ،وكان أهل الأندلس يقلّدون أهل المشرق في كل شيئ[8] .ويحيلنا أحمد ضيف إلى الهامش فيقول« أدرك ابن شهيد عصر أبي العلاء فقد عاش من سنة **382**إلى **426**، وعاش أبو العلاء من سنة **363**إلى سنة **449** [9]».وحتّى لا يستسلم زكي مبارك لرأي أستاذه استسلام الكفيف ،عاد إلى سلوك التّثبّت قائلا بعد سوْق المقدّمات« وهنا يمكن أن نرجّح أنّ رسالة(التوابع والزّوابع) كتبت بين سنة**403**وسنة**407**.هذا جانب من المسألة ،أما الجانب الآخر فهو التّاريخ الذّي وضعت فيه رسالة الغفران ...ولكنّا وصلنا بعد التّأمّل إلى تقريب التاريخ ، ذلك أنّ رسالة الغفران جواب على رسالة ابن القارح ، وقد عدنا إلى رسالة ابن القارح فدرسناها ...فعرفنا أنّه وضعها بعد أن جاوز السّبعين ، ثمّ نظرنا فوجدناه [أي ابن القارح] ولد سنة **351**، فإذاأضفنا إلى هذا الرّقم **70** وجدنا أنّه كتب رسالته حوالى سنة **321**

وتكون النّتيجة أنّ رسالة الغفران كتبت حوالى سنة 422...ونتيجة هذا التحقّق أنّ رسالة الغفران كتبت بعد رسالة التوابع والزّوابع بنحو عشرين سنة ، وبذلك يتبيّن أنّ الدكتور ضيف لم يكن مصيبا حين افترض أنّ ابن شهيد قلّد أبا العلاء ، وصار من المرجّح أن يكون أبو العلاء هو الذي قلّد ابن شهيد [10] » .يحيلنا زكي مبارك إلى الهامش ليؤكّد بعد تحرير المسألة أنّ رسالة الغفران كتبت سنة424هـ مستشهدا في ذلك بنص لأبي العلاء نفسه في رسالته[11]

وخلف هذا الرّأي يسير المستعرب الفرنسي "شارل بلا"(charle pellat)حين يقول بأنّه « لا يجوز أن نتّهم ابن شهيد بارتكاب سرقة بل من الواجب أن نعجب بقوّة مخيلته وصحّة نبوغه إذ تخيّل سفرا إلى أرض الجنّ يلقى فيها توابع الشعراء...ولقد أجهد الأستاذ بيريس نفسه فحاول أن يلتمس لهذه البديعة أصلا وذهب إلى أنّ أبا عامرقد تأثّر باليونان ، وإن اعترف بأنّه ربّما استمدّفكرته من نفسه ،فأنا أعتقد أنّ ابن شهيد ،لمّا قال له أبو بكر بن حزم إنّ له تابعة تنجده . وجد في هذا القول نقطة انطلاق وبنى على فكرة التّوابع رسالته الأصيلة[12]».وقد تكمن أصالتها بحسب "ماريا خيسوس" ،في أنّ هذه الرّحلة الدّنيوية التي هي فكرة رسالة التّوابع والزّوابع« ليس لها علاقة أو ارتباط بالرّحلة إلى العالم الآخر التي وقعت لمحمد [صلى الله عليه وسلّم] كما وردت في الحديث المسهب عن الإسراء والمعراج لمحمد[صلى الله عليه وسلّم] والذي يعد مصدرا للكوميديا الإلهية ، كما لم تكن لها صلة أو علاقة برسالة الغفران التي كتبها معاصره الشامي أبو العلاء .والتي هي أيضا رحلة إلى العالم الآخر . إنّ الأرض التي كان فيها هؤلاء الجنّ أو عالمهم هو شيئ أشبه بحاشية ربّما...ليست في حاجة إلى مصادر أدبية [13] ». قد يكون

هذا الأمر صحيحا ، ولكنّما يكون أقرب إلى الصّحة أيضا أن نعيد السّبق في ذلك كلّه إلى دافع العاهة وسحرها ، نحاصر بهما غلواء السبق وشهوة التفوّق اللّذين كانا ولازالا يستبدّان ببعض إخواننا في المشرق كلّما لاح في أفق المغرب العربي كوكب أو سطع في سمائه نجم.

يفاجئنا ذوو العاهات - دائما- بإنجازاتهم المتميّزة ، فقد كتب "هوميروس" الإلياذة و الأوديسا -وهو أعمى- ، واخترع الفرنسي "لويس براي"(L.braille)(1809.1852) طريقة "البراي" في الكتابة للمكفوفين-وكان أعمى كذلك-، ولانحتاج أن نذكّر أنفسنا بـ "طه حسين"، و" بشّار بن برد" ، والمؤرّخ ابن عساكر العسقلاني[14] (649 -733هـ)، وحديثا الشّاعر اليمني "عبد اللّه البردوني".و من الصّمّ الزاهد الورع "حاتم الأصمّ"(حاتم بن علوان ت237هـ)، و ف. بيتهوفن (Lidwig.van.Beethoven) (1770.1827).

ينطوي ذوو العاهات على أنفسهم ، وينسحبون بصمت من مسرح الحياة ؛كما فعل أبو العلاء حين حبس نفسه في بيته ، واعتزال ابن شهيد للوزارة، وتخلّي بيتهوفن عن العزف - مؤقتا- حين ازادت حدّة صممه. ولكنّهم في ذروة ألمهم يقدّمون للمبصرين والسّامعين مالا تقو حوّاسّهم الممتلئة والسليمة على تقديمه.إنّ أشرف حواس الإنسان الخمس ؛السّمع والبصر فهما منفذا لذّات وآلام الروح ، بينما تبقى حواس الذّوق والشّمّ واللّمس منافذ الجسد على ذلك، ولهذا قرن اللّه عزّوجل ذكرهما في كتابه، فجعل مدار الإيمان والتّصديق والعمل منوطا بهما ابتداءً.قال تعالى: **« إنّ في ذالك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد[15] »** ،وقال أيضا : **« واللّه أخرجكم من بطون أمّهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السّمع والأبصار والأفئدة لعلّكم تشكرون [16] »**

الهوامش

1. ينظر أنخل بلانثيا ؛تاريخ الفكر الأندلسي تر، حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية مصر، دط، دت
2. أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ؛الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح إحسان عباس ، دار الثقافة ،بيروت لبنان 1997، ج1 ص12
3. المصدر نفسه ص12
4. أحمد أمين ؛ظهر الإسلام ؛شركة نوابغ الفكر القاهرة مصر، ج3، ط1 2009 ص104 - 105
5. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ؛كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان، تح ؛عبد السلام هارون ، دار الجيل ،بيروت ،لبنان، ط1 1990، ص15(الكلام للمحقق)
6. المصدر نفسه ص565
7. زكي مبارك ؛ النثر الفني في القرن الرابع الهجري ، المكتبة التجارية الكبرى مصر ط2 ج1 ص258
8. ينظر أحمد ضيف ؛بلاغة العرب في الاندلس ، دار المعارف للطباعة والنشر تونس ط2 1998 ص62
9. المصدر نفسه ص62 زكي مبارك ؛ النثر الفني ج1 ص259، 260
10. ينظر المصدر نفسه ص260
11. شارل بلا ؛ابن شهيد ، حياته وآثاره، منشورات الجامعة الاردنية 2، كلية الآداب دط دت ص99
12. ماريا خيسوس ؛الادب الاندلسي تر أشرف علي دعدور ، المجلس الأعلى للثقافة مصر 1999 ص247
13. ينظر ابن شاكر الكتبي ؛فوات الوفيات، تح إحسان عباس ، دار صادر بيروت لبنان ج1 ط1 1973 ص474. من مؤلّفات ابن عساكر "شنف الآذان في مماثلة تراجم قلائد العقيان" و "ما يشرح الصّدور منأخبار عكا وصور".
14. سورة ق الآية 37
15. سورة النّحل الآية 78